أبوإسحاق الصَّابئى وأسلوبه في الكتابة و الشعر

دكتورعبدالرضا عطاشى–جامعة آزادالاسلاميِّة ايران – فرع آبادان
سيد نظام الدِّين مرتضوى؛طالب دكتوراه– جامعة آزادالاسلاميِّة ايران فرع آبادان
Abdolrezaattashi2014@gmail.com

المستخلص

أبواسحاق إبراهيم بن هلال الصابئى من كبار كتّاب الدواوين في القرن الرابع الهجري، صابئي النحلة، حرّاني الأصل، تولّى ديوان الرسائل للمهلبي وزير عزّ الدولة.كانت علاقته جيدة مع معاصريه من المسلمين و خاصةً مع جماعة من كبرائهم، لكن يمنع منصبه الرفيع و علمه الغزير و سلوكه الحسن تعرّضه للنكبات و المحن التي عانى منها الكثير فكثرت آلامه و شكواه. فجاءت سيرة الصابئى في أكثر الكتب و المصادر العلميّة بأنّه كاتب مفلّق و لكن لم تتحدّث عن شاعريّته، و لقد وجدنا له فى بعض كتب القدماء أشعاراً في أغراض مختلفة و جاء فى مصادر غير قليلة بأنّ له ديواناً قد ضاع،فبعد الدِّراسة الفنيِّة لأدبه يمكن أن نعدّه من كبار الكتَّاب فضلا عن كونه من أبرز فحول الشعراء لعصره ؛تسعى هذه الورقة البحثيِّة حسب المنهج النقلى التحليلى فضلا عن ذكر لمحة من مقدرته فى النثر، فإنَّها تدرس شاعريته و فنّه الشعريّ، و تعالج الأغراضه وأساليبه الشعريّة فقد ثبت لنا أنّه من جهابذة الكتّاب لعصره و هو شاعر رقيق اضطلع في إنشاد الشعر في الأغراض و المضامين الشعريّة المختلفة .

الكلمات الرئيسة: أبواسحاق الصابئى . الكاتب و الشاعر، أسلوبه و فنه الشعري، أغراضه الشعرية

Abstract

Hilal ibn Abu Ishagh Saby' Court of the great writers of letters in the fourth century, he Sabyh religion and is a native of Harran, the Izz al-Dawla, the Secretary of the Department of Justice was responsible for writing letters. Especially with a group of Muslim scholars and Muslim intellectuals of that era had a good relationship, despite their official status and sublime, full of knowledge and temper their reputations, facing adversity and hardship and very real problems, and range of vision, Because he did complain to the head.

Most books and literature as a leading author introduced Saby And the poem did not mention is the In the literature, we refer to the books of his poetry remaining prizes in various fields Some of the resources listed in the bureau's Missing She is a gifted poet, and his poems have mirrored that of the poet's moods and change and depth of the story. And thus he can be considered the poets of his time. The paper also attempts to corner some of the technical strength of literary works in prose The author and poet, his poetry and poetry reviews, and to explore issues of poetry, art and style poem poet poetry position he would By examining the life and poetry was the scholar who has experienced Saby addition to being a writer and a poet capable that hi does Skills in writing different types of poems and poems on topics ranging from tenderness, he has remained on. This

paper attempts to make scientific and literary life of the writer and poet, and the technical characteristics of its writers and poets to examine Hidden aspects of literature, especially poetry and the poet's intentions and his poetic powers to investigate and explain

Keywords: A writer and poet, his style and his art of poetry, poetic purposes

المقدّمة:

إنّ العصر العبّاسي هو أزهى العصور في تاريخ الأدب العربى ؛ وفضلا عن تطور الشِّعر و الأساليب الشعرية فى هذا العصر، قد تطوّرت أساليب الكتابة و ظهرت الفنون المختلفة كالرسائل الديوانيّة، و الإخوانيّات، و فنّ المقامة، و غيرها على يد العلماء و الكتّاب، كما اشتهر الكثير من الكتّاب في هذه الفترة الزمنية، منهم أبو اسحاق الصابئى، الذي يعتبر من جهابذة فنّ الكتابة في هذا العصر. و الدليل علي ذلک تلك الأشعار الرقيقة العذبة التي ذكرتها كتب الأدب. على هذا الأساس فضلا عن تسليطنا الأضواء على حياته الأدبيّة فنحن فى هذه الورقة البحثيِّة ندرس جوانب من شعره و مضامينه الشعرية و مدى إشتهاره في الشعر.كان البويهيون قد اهتمّوا بديوان الرسائل آنذاك، و قد تولّى أبواسحاق الصابيئى في الفترة الأولى من حياته بسبب مكانته العلميّة و الأدبية ديوان الرسائل للمهلبي الّذي كان وزيراً لعزّ الدولة البويهي وحظي عنده بالمكانة اللائقة. و شاء القدر أخيراً للصابئى أن يدخل ديوان الرسائل لعضدالدولة. فقد ترك رسائلاً و أعمالاً تدلّ على مكانته الأدبيّة و الفنيّة المرموقة. فقمنا بإختيار هذا الموضوع لأسباب غيرقليلة ؛ منها أنَّ الصابئى قد عرف في تاريخ الأدب العربى بأنّه كان كاتباً عبقريّاً ظهر في القرن الرابع و برع في فنون الكتابة، فاشتهر بهذا الجانب وخفيت مقدرته الشاعريِّة على المتأدّبين فلم يشاهد لهذا الكاتب الأديب فى المكتبة العربيِّة ديوان شعر ،لأنَّه قد ضاع الكثير من نظمه فلم

تبق إلاّ شذرات من شعره في بعض المصادر و المراجع، لذا فتوجد هناك أشعار لهذا الأديب في مختلف الأغراض و المضامين مما يمكن الإستدلال عليه بأنَّه من أبرز شعراء عصره فكانت له صلةٌ بكبار الشعراء كالشَّريف الرَّضي و الصَّاحب بن عباد و غيرهم من الشعراء و كانوا يعترفون بمكانته الأدبية في الشعر و يحترمونه جلَّ الإحترام كشاعرٍ و ناثرٍ مجيد له شأنه و مكانته المرموقة. من هنا تتّضح مدى أهميّة هذه الدراسة، فقمنا في هذا المقال بدراسة شعره و إيضاح فنونه الّتي بَرعَ فيها إضافة إلى فنه في الكتابة و النثر.

خلفية البحث:

فلقد تحدث الكتاب و الأدباء عن الصابئى و حياته و نسبه في آثارهم و لكن لا نجد من يتطرق إلى شاعرية الصابئى و فنّه الشعري خاصة.وأمَّا أُولئک الذين تطرقوا فى كتبهم قديماً وحديثاً عن حياة أبى أسحاق إبراهيم الصَّابئى مايلى: إبن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان طبع:بيروت؛دار صادر؛1994م. وياقوت الحموى فى كتابه معجم الأُدباء؛طبع القاهرة ؛دارالفكر.1980.م.والثعالبى فى كتابه يتيمة الدَّهر.طبع:مطبعة القاهرة وأمَّا أولئک الَّذين تطرَّقوا لأدب الصَّابئى فهم ما يلى:

- في سنة 1834م ترجم المستشرق ""فيليب فولف – ""PH. Wolffفي ألمانيا – أشعار أبي الفرج الببغاء الموجودة في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي، ونشرها باللغة الألمانية ، وترجم معها إلى الألمانية أيضًا بعض أشعار الصابئ التي راسل بها الببغاء، والتي وردت في اليتيمة كذلك.
- في عام 1898م نشر شكيب أرسلان – في لبنان – بعض رسائل الصابئى، بدأها بمقدمة و ترجم له فيها ترجمة سريعة و نقل فيها أبياتًا قليلة له عن بعض المصادر، ولكنه لم يُشر إلى كل مصادره التي نقل الترجمة عنها.
- في سنة 1955م أعدّ الباحث/ محمد محمود الدش – في مصر – رسالة ماجستير عن رسائل الصَّابئى ودرس فيها موضوعاتها الفنية، مقدمًا لذلك

بدراسة عن ديانته وبيئته؛ وحياته مشيرًا إلى أهمية شعره وبعض موضوعاته؛بيد أنه، لم يلم بكل موضوعات شعره.

- في سنة 1961م حقق د محمد يوسف نجم في الكويت الرسائل المتبادلة بين الصابئى والشريف الرضي التي ضمّت بعض الرسائل الشعرية للصابئى، بيد أنها لم تمثّل إلا جزءًا يسيرًا من شعره.
- في عام 1976م أعدّ الباحث مهدي صالح البدري في العراق رسالة ماجستير بعنوان "أبو إسحاق الصابئى، حياته وأدبه".
- في عام 1977م أعدَّ الباحث محمد يونس عبد العال في مصر رسالة دكتوراه بعنوان "المختار من رسائل أبي إسحاق الصائى، تحقيق ودراسة".
- في عام 2001م أعدّت الباحثة نعمة حامد أبو شادي في مصر أيضًارسالة دكتوراه عنوانها: "أبو إسحاق الصابئى وآثاره النثرية، دراسة تحليليّة"، ركّزت فيها على حياته، وموضوعات رسائله وخصائصها الفنية، ولم تشر إلى شعره بطبيعة الحال.
- وعلى هذا الأساس يشمر الباحث د. محمد غريب ساعديه لتجميع أشعار الصَّابئى فى ديوان مستقل_ تحت إشراف المؤسسة الثَّقافيّة الأدبيّة الخيريّة بزعامة الشَّاعراسعود عزيز البابطين _ويقوم بهذه المهمة الأدبية الصعبة، ممَّا كتبه القُدماء والحديثون.

فقد اعتمدنا في دراسة الحياة الأدبيّة للصابئى على كتب المصادر،لكن واجهنا بعض الصعوبات في هذه الدراسة منها قلّة المصادرالَّتى تفى بالغرض، والغموض والإبهام الذي يحيط بحياة الشاعر فلاتكشف لنا المصادر عن كل جوانب حياته فهى غير مركِّزة على العنصر الشَّاعرىِّ له ، ثمّ لم تكن آثار و مؤلّفات الصابئى في متناول الأيدي لأنّ أكثرها قد ضاع إثر الحوادث و مرور الزمن فعكفنا على أدبه نثراً و شعراً، و بيّنا فيها الخصائص الفنيِّة لرسائله فذكرنا نماذج منها وقمنا بتحليلها، ثم تناولنا

موضوع شاعريّته كما قمنا بدراسة أغراضه الشعريّة التي تشمل الوصف، و المدح، و الشَّكوى و العتاب، و الهجاء و الغزل و .... مع ذكر نماذجٍ منها وأمَّا ما تجيب هذه الورقة فيما أدناه بالإسئلة التَّاليِّة:

نظراً للمذهب الذى يعتنقه أبو إسحاق الصابئى هل هنالك إرهاصات من الثقافة الإسلاميِّة توجد فى نثره ام شعره؟ ما هى مميزات شعر إبى إسحاق الصابئى ؟كيف تجلَّت شخصيِّة أبى إسحاق الصابئى من خلال نظمه ونثره؟

حياة الصابئى و نسبه :

أبواسحاق ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرُون بن حبُّون من الصابئة الحرّانيين (ابن خلكان،1994م:52/1). و جدّه ابواسحاق ابراهيم بن زهرون كان طبيباً مشهوراً و يبدو أنّ لهذه العائلة قدماً راسخة في الطب و إنّها تتوارث هذا العلم جيلاً عن جيل وجماعة الصابئة كانت من رعايا الدولة الإسلامية، تبوّأ الكثير من أفرادها المراكز العالية في الدولة وإبراهيم الصابيء كان أحدهم واختلف المؤرخون في تحديد سنة ميلاده، فذكر في ذلك عدة تواريخ ذكرها ياقوت معتمداً على كتاب التاريخ لأبي الحسين هلال بن الحسن حفيد أبي اسحاق(الحموي، 1980م: 21/2). كان أبواسحاق في البداية طبيباً ثم ترك مهنة أسلافه و إتجّه إلى الكتابة إنصياعاً لطبعه المحبّ للأدب و الشعر و النحو فتعرّف على الإسلام و قام بدراسة القرآن وحفظه «حفظاً يدور على طرف لسانه و سنّ قلمه» (ثعالبي1375هـ: 2/ 24و242)، و تعلّم الفقه الإسلامي، و عكف على تعلّم العلوم الإسلاميّة المختلفة و برع في فنون الكتابة و مع أنّه كان ينتمي إلى الصابئة لكنّه بما كان يملك الثقافة الإسلاميّة الواسعة استطاع أن يدخل ديوان الرسائل عيّنه المهلبي خليفة له على ديوان الوزارة بالإضافة إلى تولية ديوان الرسائل (ثعالبي 1375هـ: 2/ 243 و الحموي، 1980م: 29/2).

كان الصابئى يتابع عمله اعتيادياً إلى نهاية عهد عزّالدولة بختيار سنة 367 هـ.، و يدلنا على ذلك ما نراه من رسائل مؤرَّخة في هذه الفترة الزمنيّة و بعد وفاة

عضدالدولة سنة 372 هـ. عرضت على الصابئى فرصة للإستقرار و العمل فقد أرسل الصاحب بن عبّاد رسولاً يستدعيه إلى حضرته بالرّي باذلاً له نفقة واسعة (الحموي، 1980م: 300/6). فكتب إليه معتذراً من قصيدة يبدو فيها أنّها كتبت سنة 372 هـ. و بقي أبواسحاق في بغداد و قد تولّى ديوان الإنشاء لصمصام الدولة ابن عضد الدولة و خليفته في الحكم. هكذا صارت حال أبي اسحاق تزداد سوءاً مع تقدّم الأيّام فبعد إن كانت معاناته نفسية أضيفت إليها آلام جسدية، و صار سنة 381 هـ. يشكو المرض في جسمه و كان الصابئى على هذا الحال حتّى سنة 384 هـ. و هي سنة وفاته و كان المرض قد أخذ منه كلّ مأخذ(المصدر نفسه، 6/ 303-301).

أدب الصابئى:

أدب الصابئى هو الأدب الَّذى إزدهرت أُسسه على الثقافة الإسلاميّة الغزيرة و تجلَّى أدبه فى الجانب الرَّسمى فى الرسائل الديوانية، و الرسائل التي كان يعبّر بها عن مآسيه و آلامه و ما تسمى بالرسائل الإخوانية و هو يمثّل نموذجاً عالياً للكتابة الإنشائية في القرن الرابع الهجري فيذكره أبوحيّان التوحيديّ بهذا القول: «أبواسحاق معانيه فلسفيّة، و طباعه عراقيّة، و عادته محمودة، لايثب و لايرسب، و لايكسل و لايكهم، و لايلتفت و هو متوجّه، و لايتوجّه و هو ملتفت، ... هذا و نظمه منثوره، و منثوره منظومه، إنّما هو ذهب إبريز كيفما سبك فهو واحد و إنّما يختلف بما يصاغ منه و يشكّل عليه» (التوحيدي، 1942،ج 1،ص67-68). و كان ينتمي إلى دين الصابئة و يؤمن بعقائده، و كان لهذا أثره في سلوكه و أخلاقه كما في إتّجاهاته العلميّة و علاقاته مع الآخرين و في نتاجه الأدبي أيضاً يقول فيه الصاحب:« كتَّاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابئى، ولو شئت لذكرت الرابع، يعني نفسه، وأما الترجيح بين هذين الصدرين – أعني الصاحب والصابئى – في الكتابة فقد خاض فيه الخائضون وأخب

فيه المخبون ومن أشفي ما سمعته في ذلك أن الصاحب كان يكتب كما يريد وأبو إسحاق كان يكتب ما يؤمر، وبين الحالين بون بعيد»(ثعالبي، 1375هـ:1/ 83).

لأبي اسحاق الصابئى عدّة مؤلّفات في العلم الرياضي و الأدب و التاريخ منها ما ذكرته المصادر القديمة و لم يصل إلينا، و منها ما هو مخطوط في مكتبات العالم، و القليل منها هو المطبوع. امّا في الأدب فذكرت له المصادر: ديواناً شعرياً و كتاب ديوان رسائل في نحو ألف ورقة و له في التَّاريخ كتاب التاجي في تاريخ بني بويه و قد ضاع إلاّ قليلا منه و قد ذكرت المصادر عدّة مؤلفات نسبتها إلى الصابئى في حين أنّها لسواه، أو أنّ نسبتها إليه ليست ثابتة منها: كتاب أخبار الوزراء وكتاب الهفوات النادرة و كتاب أخبار النجاة (الحموي، 1980م: 94/2).

و فضلا عن مؤلفات أبي اسحاق فهنالک مجموعة كبيرة من الرسائل قد جمعت في كتاب المختار من رسائله و يمكن تقسيم رسائل الصابئى إلى قسمين رئيسين: الرسائل الديوانيّة و الرسائل الشخصيّة و الرسائل الديوانيّة هي كلّ ما كتبه أبواسحاق عن الخليفة العبّاسي أو عن أحد ملوك البويهيين الذين كانوا يتسلمون زمام الأمور أو عن أحد الوزراء و يشمل ذلك:

- ❖ كتب الفتوح، كتب مفتوحة إلى الرعية، كتب العهود و التقليدات، كتب الإقطاعات و ما يتعلق بالخراج، عقود الصلح و الهدنة و عقود الأمان و في شؤون مختلفة كالعلاقات مع الدول و الجماعات و الولاة هذه أهمّ الموضوعات التي تعالجها الرسائل الديوانيّة التي تعتبر المجال الذي برع فيه الصابيء و عليه كانت شهرته الواسعة.
- ❖ أمّا الرسائل الشخصيّة، و هي كلّ ما كتبه أبواسحاق لأصدقائه و أقربائه و الذي وصل إلينا من هذا النوع قليلاً جدّاً معظمها مقاطع من رسائل نقلتها المصادر عالج أبواسحاق فيها عدّة موضوعات كالتهنئة، و الشكر، و الشكوى، و العتاب و الوصف و المدح و التعزية و الأدب و غير ذلك من الموضوعات(نفسه).

❖

خصائص رسائل الصابئى:

لاتخرج رسائل الصابئى من حيث بعض السمات الَّتى كانت متداولة فى العصر الَّذى كتبت فيه و لكن لكلّ كاتب طريقة فنجد أنّ لرسائل الصابئى سمات اختصت بها وحدها. أمّا السِّمات العامّة لرسائله هي: طول الرسالة، و استعمال الأمثال و الشعر فيها، والإكثار من السجع و الإزدواج و التوازن الموسيقي، و استعمال التحميدات و الأدعية و المقاطع الحكمية و الإقتباس من القرآن الكريم ، ... و من خلال الدِّراسة الفنيِّة لرسائله يتبيّن أنّ الصابئى يتملّك ناصية الكلام و يتصرّف به كيف يشاء، وهو يزاوج بين الجمل و يوازن و يعيد استعمال المعاني بألفاظ جديدة(مبارک، لاتا، 172/1 و ضيف، لا تا، 445).

أمّا القيمة التاريخيّة لرسائل الصابئى و الديوانيّة خاصّة فإنَّه أَرَّخَ لمجموعة كبيرة من الأحداث التاريخية ابتداءً من عهد عزالدولة حتّى عهد صمصامها مروراً بعهد عزّ الدولة و عضدها. فلابدّ أن يكون لهذه الرسائل قيمة تأريخية كبيرة كونها تغطّي فترة زمنية طويلة(نفس المصدر).

نماذج من رسائله:

فصل عنه إلى أبي تغلب في الشفاعة لأخ له:

«وقد يكون لعمري من ذوي الأرحام الشابكة، والقرابات الدانية، من يتمادى في العقوق، ويذهب عن حفظ الحقوق، ولا يسع ترك تألفه حتى يرجع، واستصلاحه حتى ينزع، فإن تجشم الإعراض عنه لرياضة تقصد، أو عاقبة نفع تحمد، لم يبلغ به إلى قطع المعيشة، ومنع المادة، لأن قباحة ذلك بمن يستعمله أكثر من مضرته بمن يعمل معه، وقد قيل إن الملوك تؤدب بالهجران، ولا تعاقب بالحرمان، هذا في الاتباع والأصحاب، فكيف في الأقران والأتراب؟» (الثعالبى،1375، 1/ 238، 242).

إنَّ هذا النَّص الَّذى ألَّفه أبو إسحاق من أجل شفاعة لأخ له يمتازبالتَّوازن بين العبارات قصراً وطولاً وبالسَّجع فهذين العنصرين جعلت فى النَّص دلالة صوتيِّة ناتجة عنها موسيقة جميلة وإيقاعات لطيفه وهذا هو الَّذى نسميه بالموسيقى الخارجيِّة فى أول النَّص حيث تجسَّدت الأسجاع مع التوازن فى التراكيب: "من يتمادى في العقوق و.. ويذهب عن حفظ الحقوق "الخ..وفضلا عن جمال براعة الإستهلال فى النَّص فإنَّ الإستناد الَّذى استوحاه من أفواه العامة حرَّک به مشاعر الحکام هو شىء أجمل وجعلهم أمام مفترق طرق إمَّا العقوبة و إمَّا العفو والرُّكون إلى الثقافة السَّائدة فى المجتمع حيث قال: "قيل إن الملوك تؤدب بالهجران، ولا تعاقب بالحرمان " فكأنَّه جعل الحكام أمام الثقافة السائدة من أجل العفو.

فصل في ذكر الأقدار:

«لله تعالى أقدار في أوقاتها، وقضايا تجري إلى غاياتها، لا يرد شيء منها عن شأوه ومداه، ولا يصد دون مبلغه ومنحاه، فهي كالسهام التي لا تثبت في الأغراض، ولا ترجع بالاعتراض. والناس فيها بين غبطة يجب الشكر عليها، ورزية يوثق بالعوض عنها.» (المصدرنفسه، 242).

بما أنَّه أشرنا أعلاه فى التحليل لذا فى هذا الفصل من ذكر الأقدار يتكرر ما بيَّناه وفضلا عن إستخدام السَّجع والتوازن وبراعة الإستهلال وإستخدام البديهيِّات فيما يستدل أبوإسحاق الصَّابئى فإنَّ الرَّجل نظرا لثقافته الَّتى تثقَّف بها من وحى القرآن الكريم يستخدم المضامين الجميلة القرآنيِّة فى أمكنتها المناسبة وفإنَّه تضمَّن كلّ تعبير حسب آية من آيات القرآن الكريم حيث قال مستهلاً : لله تعالى أقدار في أوقاتها، وقضايا تجري إلى غاياتها؛ فإنَّ هذين الجملتين التّامتين تضمَّنهما من الآية المباركة :" كانَ أمر اللهِ قدراً مقدورا"(الاحزاب،38) وأيضا "ولا يردُّ بأسنُا عن القوم المجرمين" (يوسف، 110) وتركيبه: فهي كالسهام التي لا تثبت في الأغراض، ولا ترجع

بالاعتراض. فإنّه تضمّنه من الآية:"ما تسبق من أُمَّة أجلها وما يستأخرون" (الحجر،5) و أيضا من الآية" ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجلها "(المنافقون،11) وعبارته : "والناس فيها بين غبطة يجب الشكر عليها، ورزية يوثق بالعوض عنها". تضمّنها من الآيّة :"ليبلونى أأشكرُ أم أكفرُ ومن شكر فإنَّما يشكر لنفسه.(النمل،40) فإنَّ هذا النَّثر للصابئى أخذ موقعه وحلَّ محلُّه فى قلوب الأُمراء والوزراء والحكَّام فضلا عن عامَّة النَّاس لجودة كلماته وسبک تراكيبه وجمال أسجاعه وقوة مضامينه الدِّينيِّة والقرآنيِّة..

شاعرية الصابئى و أغراضه الشعريّة:

اتفقت المصادر القديمة على جودة أشعارالصَّابئى، و قد وصفه الذَّهبي في كتابه "أعلام النبلاء" بصاحب النظم الرائق و الشعر الحافل بالمعاني الجديدة والأغراض العديدة(الذهبى، 1982، 16/ 523). فقد ترك الصابئى ديواناً شعرياً يبدو أنّه ضاع و لم يبق من نتاجه الشعري سوى بضع قصائد و مقطوعات حفظتها المصادر خاصّة مثل يتيمة الدهر للثعالبي و معجم الأدباء لياقوت الحموي.إنَّ الصابئى يمتاز عن معاصريه من الشُّعراء برقة الشِّعر و عذوبته(مبارک،1348، 13).

و يبدو لنا من خلال أشعاره أنّه كان بارعاً في الشعر كما كان بارعاً في الكتابة فهو شاعر مجيد رقيق عالج في شعره مختلف الموضوعات كالغزل و الخمر و الوصف و الرثاء و الحكمة و الشكوى و الإستعطاف و التهنئة و الإهداء و المديح و الهجاء و الفخر. لكنّه كان يفضّل النثر على الشعر. يصوّر لنا الصابئى اعتقاده حول الشعر في أبيات قد ذكرت في يتيمة الدهر، إذ يقول:

أحَسِبَ الشِّعرُ يُبتدَعُ ابتدَاعَاً وَ أكرَه مِنهُ مُبتذلاً مُشَاعاَ

وَ لِي رأيُ غيورُ في المعَانِي فَمَا آتي بِهَا إلاّ افتِرَاعا

وَقَدمَا كَانَت الأبكارُ أحظَى مِنَ العَونِ الَّتي انتهِبت شعاعاً

(الثعالبي، 1375هـ: 2/ 288).

هكذا يرى الصابئى أنّ الشعر عندما يخرج عن الإبتداع و الإبتكار يصبح ساذجاً مبتذلاً، فقائله معيب غير مصيب فيرى مترجمنا أَنَّ ترك هذا الشعر هو أولى فالصَّابىء يولى الإهتمام بالمعني أكثر من إهتمامه باللفظ لأنَّه يُركِّز نقده على المعانى فيرى اللفظ جسراً للمعانى والمفاهيم على هذا الأساس فإنَّه فى البيت الأوَّل يرفض أن يكون الشِّعر مبتدعاً دون إحساس وعاطفة وفكرة وخيال وفى البيت الثَّانى يُركِّزُ على المعانى الجليلة الشَّريفة ثم فى البيت الثالث يأتى بمقابلة لطيفة فى المعنى إذ يقول أنَّ الصَّباح الباكر ليس أحظى مقاماً من الظهر الذى أخذ حظَّه من شعاع الشِّمس فإنَّه يُشِير إلى قداسة وشرافة المفاهيم والمعانى و للصابئى رسالة في الفرق بين المترسّل و الشاعر و يعرض فيها وجوه الإختلاف بين هذين الفنّين و يحدّد طريق الجودة في كلّ منهما فيعالج في هذه الرسالة مشكلة العلاقة بين النظم و النثر و امكان المفاضلة بينهما. فقد أشار التوحيدي إلى هذه الرسالة في كتابه *المقابسات* و جاء نصّها في كتاب *تذكرة* ابن حمدون.لذا ركَّز الصابئى في شعره إلى مختلف الموضوعات كالغزل، و الخمر، و الوصف، و الرثاء، و الحكمة، و الشكوى، و الإستعطاف، و التهنئة، و الإهداء، و المديح و الهجاء و الفخر.

الغزل:

أمّا في مجال الغزل نرى للصابئى مقطوعات قصيرة عدّة يمكن أن نُقسِّمُها على نوعين: الغزل الغلماني؛ و الغزل الإباحي و الغزل الغلماني يتمثّل في عدّة مقطوعات في غلام أسود اسمه «رشد» أو «يمن»، و من ذلك قوله في «رشد»:

لك وجهُ كأنّ يمناكَ خَطَّتـ ـهُ تُملِهِ آمَالِي
فيهِ مَعنىَ مِنَ البُدورِ وَ لَكِن نَفَضَت صبغَهَا عَليهِ الليالِي
لَم يَشنكَ السَّوادُ بَل زِدتَ حُسناً إنّما يلبسُ السَّوادَ المَوالِي
فَمَالِي أفدِيكَ إن لَم تَكُن لِي وَ بِرُوحي أفديكَ إن كنتَ مالِي

(ابن حمدون، 1983م: ص769)

فقد وصف الصابئى الغلام بأنّه يشبه إشراقة البدر لكن لايمكن تشبيه الغلام بالبدر بسبب لونه الأسود، فإنّه قد جمع بين السواد و الإشراق بهذا الإحتيال أنّ الغلام يشبه إشراقة البدر لكن الليالي صبغته بسوادها.فيقول إنَّ السَّواد ليس نقصا يعدُّ عليك بل زادك حسناً وإنَّما الإجلاء يلبسون السَّواد وفى البيت الرَّابع إستخدم أبوإسحاق الصَّابئى نوعاً من الجناس فى لباس المقابلة فى المعنى إذ يقول فى الشَّطر الأول مستنكراً إن كنت لست لى ولم تكن لخدمتى فلا أفديک بشيئ وإذا كنت بخدمتى فإننى أُفديک بروحى فضلا عن مالى فمن الواضح أنَّ هذا النَّوع من الغزل تطرَّق إليه الصابىء من أجل المبارات وطرح العضلات الشَّاعريِّة بأنَّه يستطيع أن يكتب فى أىِّ موضوع وحتَّى لو كانَ هذا الموضوع عبداً أسود.

أمّا النَّوع الثاني من غزله فهو يتميّز بمعظمه بالإباحيّة و الحديث عن اللقاء و فيه الكثير من التشبيهات و الأوصاف القديمة و المعهودة في ذاك العصر كتشبيه وجه الحبيبة بالبدر، و جسمها بالغصن، و الأسنان بالبرد و الدرّ، و الريق بالخمر و الشهد و... و قد تتكرّرت هذه التشابيه في المقطوعات الغزليّة، و من ذلك قوله:

لماّ رأت بدرَ الدُّجَى تائهاً مِن خِيفةِ النّاسِ بِتَسلِيمِتِهِ

أزَاحَت البُرقعَ عَن وَجهِهَا فردّت البدرَ إلَى قِيَمتِهِ

(الصفدي، 1972م: ج6، ص61/ الحموى،1980، 2/ 72).

يقول إنَّ هذه الحبيبة حينما رأت بدر الدُّجى و يقصد القمر الذى يظهر فى الليالى الظَّلماء- على سبيل التَّشبيه-تائها لا يعلم مقصده و بسبب تطاول النَّاس على جماله فأزاحت خمارها وحجابها عن وجهها الَّذى يُشبه البدر فى الجمال فظهر بدر من وجهها وجعلته فى مكانه المناسب على هذا الأساس فإنَّ أباإسحاق لعب بالمعانى بواسطة المفردات وحسن التراكيب لعب الفتى المتميِّز بالكرة فى ميدان السِّباق ويظهر الحركات المنسجمة اللائقة..

و قوله:

اَحشَمتُهَا بِالعَتبِ عِندَ لِقَائِهَا فَتَلَثَّمَت مِن شِدَّةِ استِحيَائِهَا

وَ استَكمَلَت عفّةَ البُدُورِ بطلعةٍ وَ بِحلّةٍ صِبغَت بِلَونِ سَمَائِهَا

(الثعالبي، 1375هـ: 2/ 257)

أكثرت من عتابها عندما قابلتها فهي تلثمت لشدة حيائها و هي كانت ترتدي الملابس السُّود و هي تشبه جمال البدور عند طلعتها و تزداد جمالا بملابسها السُّود التي تشبه البدر تماما في ليل داكن فأبو إسحاق برع فى الوصف للحبيب حيث إستخدم التشبيه التَّمثيلى أجلَّ إستخدام في التعبير عن العاطفة الصادقة لكنَّه تحاشا عن التَّعبير عن أشجانه و عاطفته فلم توجد هنا العاطفة الجياشة في بعض مقطوعاته منه وكأنَّه يتكلَّم بالنثر الفنى الجميل.وله مقطوعة أُخرى إذ يقول فيها:

تَوَرَدَ دَمعِي إذ جَرَى وَ مُدَامَتِي فَمِن مِثلِ مَا فِي الكأسِ عَينِي تَسكُبُ

فَوَ اللهِ مَا أَدرِي أَبِالخَمرِ أَسبَلَت جُفُونِي أَم مِن عَبرَتِي كُنتُ أَشرَبُ

(إبن خلكان، 1994، 1/ 392)

هو يشبِّه غزير دمعه بالمدام و يشبه سكب دموعه و تلألؤه بالخمر عندما تتلألأ في الكأس في حين لا يدرى ما هو سبب إسبال جفون عينية أمن شرب الخمر قد حصلت النشوة أم من شرب الدموع و شدة ذرفها بسبب هجران الإحبَّة فيستمعل التَّشبيه الَّذى إعتاد عليه فى شعره فيستخدم التشبيهات و الأوصاف الماديّة السَّائدة آنذاك فضلا عن إستخدامه التقابل فى المعانى والمفاهيم لكنَّه يصف الحبّ الذي يربطه بإحدى الجواري و يحاول أن يضيف معنىً روحيّاً على العلاقة بينهما فيقولفيما يلى:

إلَى اللهِ أَشكُو مَا لقيتُ مِنَ الهَوَى بِجَارِيةٍ أَمسَى بِهَا القلبُ يلهَجُ

إِذَا امتزَجَت أنفاسُنَا بِالتزَامِنَا تَوهَّمَت أنَّ الرُّوحَ بالرِّوحِ تمزجُ

كأنِّي وَ قَد قَبَّلتُهَا بَعدَ هَجعةٍ وَ وَجدِي مَا بطنَ الجوانـحَ يلعجُ

أَضفَت إلَى نفسِ الَّتِي بَينَ أَضلُعِي بِأَنفَاسِهَا نَفساً إلَى الصَّدرِ تُولِجُ

فَإن قِيلَ لِي اختَر أيُّمَا شِئتَ مِنهُمَا فإنّي إلَى النَّفسِ الجدِيدةِ أحوجُ

(الحموى،1980، 2/ 71)

يشكو الشَّاعر من ألم الوجد فيتلهب قلبه عند ذكر حبيبته و لقائها و عندما يتصل بها يتوهم بأنه قد أفني فيها فأصبح نفسه بنفسها ممتزجاً لذا صارا روحاً في جسدين. و الشاعر يحس في وجوده بروح جديدة و هي حبيبته التي يحسها بعمق من وجوده وهو يؤثرها علي نفسه ويفضلها وأمّا من مميزات غزله أنّه كان يتّسم أحياناً بالعقلانيّة و ضعف العمق الشعوري عندما يصبح معرضاً لثقافته و حينما كان يمتاز عصره من التعدّد الفكريّ و الدينيّ. فهو يحاول أن يُوفِّق بين الدِّيانات إزاء الحبِّ العفيف فيجعل الحبَّ موضوعاً إنسانيّاً تعترف جميع الأديان فيقول:

كُلُّ الوَرَى مِن مُسلِمٍ وَمُعاَهِدٍ للدِّينِ مِنهُ فِيكَ أَعدَلُ شَاهِدِ
فَإذَا رَآكَ المُسلِمُونَ تيقّنُوا حُورَ الجِنَانِ لدَى النَّعيمِ الخَالِدِ
وَ إذَا رَأى مِنكَ النَّصارَى ظَبيةً تَعطُو بِبَدرٍ فَوقَ غُصنَ مَائدِ
اثنُوا عَلَى تَثلِيثِهِم وَ استَشهَدُوا بِكَ إذ جَمعَتَ ثلاثةَ واحدِ
وَ إذَا اليَهُودُ رَأَوا جَبِينَكَ لَامِعَاً قَالُوا لِدَافِعِ دِينِهِم وَ الجَاحدِ
هَذَا سَنَا الرَّحمَنِ حِينَ أَبَانَهُ لِكَلِيمِهِ مُوسَى النَّبِي العَابِدِ
وَ تَرَى المجُوسَ ضِياءَ وَجهِكَ فَوقَهُ مِسوَدَ فَرعَ كَالظَّلامِ الرَّاكدِ

(المصدرنفسه، 2/86-88)

هذه الأبيات للصابئى تطلعنا على واسع ثقافته و إطلاعه على الدِّيانات المختلفة في عصره و فضلا عن البصمة التَّأريخيِّة الَّتى أضافها حول الدِّيانات الموجودة في ذلك العصر و الحرية الدينية التي يتمتع بها أصحاب الديانات في العهد العباسي.

الوصف:

و له في الوصف مقاطع في معظمها تشمل موضوعات معيّنة كانت شائعة بين شعراء ذلك العصر كوصف النرجس و الورد، و شمامة الكافور، و وصف الطيب، و الغالية (نوع من الطيب)، و ... و يعتبر هذا الوصف نوعاً من النقل التصويري، فالصابئى يصف الأشياء كما هي في الظَّاهر أَنَّ من يتأمَّل فى الوصف أدناه يمكن

يجعله وصفا قشريّاً فلا يمتاز بالعمق الواقع لأنّه لايرتبط بنفسيّة الشاعر و لا بوجدانه فنعبّر عنه بالوصف المادّي،لكنَّ الإستخراجات الجميلة الَّتى وظَّف الوصف من أجلها أضافت جمالاً على الوصف المادى فيقول في وصف الورد:

أمَا تَرَى الوردَ قد حَيَّاكَ زائرُهُ بِنفحةٍ قَد فَرّجَت عَن كُلِّ مَصدُورى

كأنَّ أنفاسَهُ أنفاسُ غانيَّةٍ معشوقةٍ خَالَطَت أنفاسَ مَخمُورِ

تَفتّحَت وجناتُ في جوانِبهِ كأنّمَا انتزَعَت مِن أوجهِ الحُورِ

(الثعالبي، 1375هـ: 2/ 262)

و لـه فـي وصـف الخمـر قصـيدتان يـذكرهما الثعـالبي فـي يتيمـة الـدهر، يصـف الشاعر في إحداها مجلس الخمر. و في الثانية يشبه مجلس الأنس بالمعركة. و له أربع مقاطع أخرى في وصف الخمر و الساقي، و هي تشتمل على المعاني الخمريّة المعروفة كتشبيه الراح بالعذراء. و يأخذ المعنى في قصيدة تشبيه مجلس الأنس بالمعركة من أبي نواس. فمن ميزات شعره أنّه يقتبس من الشُّعراء الآخرين، ومن اقتباسه كهذا البيت:

أيُّهَا اللئُمُ المضيّقُ صَدرِي لاتَلُمنِي فَكَثرةُ اللوْمِ تُغرِي

(الحموي، 1980، 1/ 69)

المأخوذ من قول أبي نواس:

دَع عَنكَ لوْمِي فإنَّ اللوْمَ إغراءُ وَدَاوِنِي بالّتِي كَانَت هِي الدَّاءُ

(ديوان ابي نؤاس ؛لا تا، ص 6)

الرثاء:

كان رثاءه يفيض بالحزن و اللوعة و كان له أثر حماسيّ تأجّج لهيب الحفيظة في القلوب و أخذ الصابيء يضيف إلى الرثاء فكرة جديدة خصبة في حقائق الموت و سنن الوجود كما كان رثاءه بكاءاً يفجّر الحزن في النفس و يصوّر شقاء الموت و

توجّع فقد الأحبّة. و اخترنا من رثاءه قصيدتين، احداهما في رثاء ابنه «سنان»، و الثانية في رثاء خاله أبي الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة. قال في رثاء سنان:

أَسعِدَانِي بِالدَّمعةِ الحَمرَاء جَلَّ مَا حَلَّ بِي عَن البيضاءِ
يُؤلِمُ القَلبَ كلَّ فَقدٍ وَ لَامِثـ لَ افتِقَادِ الآباءِ للأبنـاءِ
هَدَّ رُكنِي مَثوَى سِنَانٍ وَ قَدكَا نَ يَهِدُّ الأركَانَ مِن أعدَائي
عَكستُ فِيكَ دَعوتِي إذ أُفدِيـ كَ بُرغمِي فَصِرتُ أَنتَ فِدَائِي
إنّمَا كُنتُ فَلذةً مِن فُؤادِي خَطفتهَا المَنونُ مِن أَحشَائِي
كُنتُ مِنِّي وَ كُنتُ مِنكَ اتّفاقًا وَ التئِامَاً مثلَ العَصَا وَ اللحاءِ

(الثعالبي، 1375هـ: 270/2)

فنرى في هذه القصيدة أنّ الصابيء يرثي على ولده رثاءاً أليماً فيطلب من النّاس أن يذرفوا دماً بدلاً من الدموع لمصيبة قد حلّت به و هدّت أركانه، فوفات ابنه قد ترك ألماً في قلبه و ضعفاً في قواه فهو كان ظهيراً له في الحياة. و قد خرج الشاعر في هذه القصيدة عن أسلوب الرثاء في عصره من تأبين الميّت و ذكر صفاته و مدحه، حيث ركّز الشاعر على ذكر أثر وفاة ابنه عليه، و يعبّر الشاعر عن ألمه حيث كان ينتظر الموت لنفسه في شيخوخته فإذا المنيّة تخطف فلذة من فؤاده. و يصف الشاعر العلاقة التي كانت قائمة بينهما، فهي علاقة وثيقة و حميّة إلى حدّ الوحدة، فالميّت فلذة من فؤاد الشاعر و كانا متّحدين كاتّحاد العصا و اللحاء. أمّا قصيدته في رثاء خاله ثابت بن سنان فقد صنعها على ما جرت عليه شعراء عصره في المراثي، فعبّر عن عاطفته بالبكاء و التلهّف و الزفرات، و قام بذكر صفات الميّت و مدحه، فمن هذه القصيدة:

أسَامع أنتَ مَن ضَمّهُ الجَدفُ نَشيجُ بَاكٍ حزينٍ دَمعُهُ يَكفُّ
وَ زَفرةُ مِن صَمِيمِ القَلبِ مَبعثُهَا يَكادُ مِنهَا حِجَابُ الصَّدرِ يَنكَشِفُ

(الحموى، 1980، ج 7، ص 143-145)

الحكمة:

للصابيء بعض الألفاظ في الحكمة مستقلّة على شكل مقطوعات، أو متفرقة داخل قصائد أخرى. و يمكن تسمية هذه الأبيات بالخواطر و ذلك أنّها تهيّأت للشاعر نتيجة تجاربه و تأمّلاته في الحياة، و من ميزاتها نقصها العمق الإنساني و الشمولية، فهي و إن كانت تأمّلات عامّة، إنّما صاغها واقع عانى منه الشاعر. من ذلك نظرته أنّ أفضل الموت أسرعه لأنّ الإنسان كلّما طال عمره أتيح له التعرّض للمزيد من الخطوب و الكوارث، فيجب أن لا يغتبط بالعيش الذي يصاحبه الخوف ثمّ ينتهي بالوفاة. يقول:

إِذَا لَم يَكُن بدّ مِن المَوتِ للفَتَى فأرُوحُه الأوحَى الَّذِي هُو أسرَعُ
وَ مَا طَالَ عُمرُ قَطُّ إلا تَطَاوَلَت بِصَاحِبِه رَوعَاتُ مَا يَتوَقعُ
فَكُن عَرضَاً بِالعَيشِ لَاتَغتَبِط بِهِ فَمَحصُولُه خَوفَ وَ عُقبَاهُ مَصرَعُ

(الثعالبي، ج 2، ص 292)

و هذه الحكم شديدة الإلتصاق بحياة الصابيء إذ كان يتمنّى الموت السريع لنفسه لئلاّ يعيش أكثر و يرى المزيد من النوائب و كان هو الّذي يشكو الفقر فهو كان غنيّاً بالعلم و الأدب، و هو الذي قدّم الدهر له الخير و الشرّ و تقلّبت به الأيام بين سعادة و شقاء. من هنا نفسّر صبغة التشاؤم التي تسيطر على حكمه المكتوبة في السجن و يتحدّث فيها عن الموت و الفقر، فيما قد تخلو حكمه الأخرى من هذه الصبغة إذ نجده يدعو إلى الأمل بالناحية الإيجابية في الحياة و إلى عدم الخوف من الإقدام و السعي و الإجتهاد. و من نماذج شعره في الحكمة أيضا، هذه المقطوعة الشعريّة إذ يقول:

ألا أيُّهَا الإنسَانُ لا تَكُ آيسَاً مِنَ الدَّهرِ أن تَصفُو عَليكَ مَشارِبُهُ
فإنَّ لَهُ حَتمَاً مِن الشَّرِ وَاجِبَاً وَ حَتمَاً مِنَ الخَيرِ الهَنِي عَواقِبُهُ
وَ إن تَلقَ مِن حَتمَيهِ مَا كُنتُ تَبتَغِي فَأولَى بِكَ الحَتمُ الَّذِي أَنتَ طَالِبُهُ
سَتَكسِبُ مَا تَرجُو وَ لَو كُنتَ كَارِهَاً كَكَسبِكَ مَا تَخشَى وَأنتَ مُجَانِبُهُ

(المصدرنفسه، ص 297-298)

يعتقد الصابيء في هذه الأبيات أنّ الدهر يقدّم للإنسان الخير و الشرّ و الإنسان هو يسلك طريقين في الحياة إمّا يطلب ما يرجوه أو يبتعد ما يخشاه، فعلى الإنسان أن لا ييأس من صفاء الدهر و هنائه. إذاً خبرة الصابيء بالأيام جعلته يؤمن بعدم الإغتباط بالخير خوفاً من الشرّ الذي سيعقبه و عدم اليأس أمام النوائب، فالفرج لابدّ آت. أمّا خبرته بالناس فقد جعلته يبحث فيهم عمّا وراء الأقوال و الكلمات و الأوجه:

لَا تُرَاعِ المَقَالَ مِن ألسُنِ النَّاسِ وَ رَاعَ القُلُوبَ مَاذَا تَقولُ

(الصابى، 2000، ص 341)

الشَّكوَى:

الظروف الصعبة التي مرّ بها الصابيء من نكبة و سجن خلقت لديه ميلاً إلى الشكوى يعبّر بها عن شعوره بالظلم و الغبن فنثرت المقطوعات الشعرية التي يشكو بها ممّا أصابه، إذ اجتمع عليه ظلم الحكام، و تمثّل هذه المقطوعات في سجنه و نكبته و فقره، و ظلم الأيام. و نتعرّف من خلال شكاوي الصابيء كثيراً من حياته و تقلّب الأيام به و شخصيّته و تطلّعاته، و لا يقتصر الميل إلى الشكوى على مقطوعاته الشعرية فقط و إنّما ظهرت في الكثير من المقطوعات النثرية التي حفظتها المصادر. و المقطوعات التي تحمل الشكوى تعتبر من أصدق شعر الصابيء و أقربه إلى نفسه. و نرى في هذه المقطوعات الشعريّة طابعاً من الحزن و اليأس. فمن نماذج شعره في الشكوى و هو يشكو به النكبات، يقول:

أخرُجُ من نكبةٍ و أدخُلُ في أخرَى فَنَحسِي بِهِنّ مُتَّصِلُ

كَأنّهَا سُنّةٌ مُؤكّدَةٌ لَا بُدَّ مِنَ أن تُقيمُهَا الدُّولُ

فَالعَيشُ مُرٌّ كأنّهُ صَبِرُ وَ الموتُ حُلوٌ كأنّهُ عَسَلُ

(العباسي، 1947م، ج2، ص75-76)

و يقول في الحظّ الذي خانه في أيام المشيب:

عَجَباً لِحَظِّي إِذْ أَرَاهُ مَصَالِحِي عَصرَ الشَّبَابِ، وَ فِي المَشِيبِ مُغَاضِبِي
أَمِن الغَوَانِي كَانَ حَتَّى مَلَّنِّي شَيخَاً وَ كَانَ عَلَى صِبَايَ مُصَاحِبِي؟
أَمَعَ التَّضَعضُعِ مَلَّنِي مُتجنّباً وَ مَعَ التَّرعرُعِ كَانَ غَيرَ مُجَانِبِي
يَا لَيتَ صَبوَتَه الَّتِي تَأخّرَت حَتَّى تَكُونَ ذَخِيرةً لِعَوَاقِبِي

(الحموى، 1980، ج 2، ص 28-29)

الإستعطاف و العتاب:

و يلحق بشعر الصابيء في الشكوى شعره في الإستعطاف و العتاب. يذكر الصابيء في هذا القسم من أشعاره همومه و أشجانه لأحد أصدقائه أو ثقاته، أو لأحد أولياء الأمور، طلباً للمساعدة أو عتاباً، و يتميّز هذا النوع بغلبة الشعور بالإنسحاق خاصةً أمام ولي الأمر الذي ينتظر الشاعر منه المساعدة أو الصفح و الغفران. فقد أنشد عندما سجنه عضد الدولة، إلى وزيره عبدالعزيز بن يوسف قصيدة مطلعها:

كَفَانِي عُلَاءَ حِينَ أَفخَرُ أَنّنِي اَضَافُ إِلَى عَبدِالعَزِيزِ وَ اَنسَبُ

(الثعالبي، 1375هـ: 290/2)

و يتجلّى الشعور بالإنسحاق في إحدى قصائده التي أنشدها لعضد الدولة و هو في السجن، يستعطفه و يطلب رضاه، فيقول:

إِذَا أبصَرت عَينَاي خدّاً معفّراً لَديكَ نقلتُ التُّرابَ مِنهُ إِلَى خَدِّي
وَ إِذَا سَمِعَت أُذنَاي عَنكَ مُحدّثاً لَهِجتُ بِتَكرِيرِ الحَدِيثِ الَّذِي يُبدِي
فَذِكرَاكَ جَهرِي حِينَ يَطرَقُ زَائِرِي وَ نَجوَاكَ سِرِّي حِينَ أَخلُو بِهَا وَحدِي
وَ مَن زلَّ يَوماً زلّةً فاستَقَالهَا فَذَاكَ حَقِيقُ بِالهَدَايةِ تَعثَّرَ إذ تَخدِي

(المصدرنفسه)

في هذه النماذج يتبيّن لنا أن الصابيء يظهر الذلّ و المسكنة أمام أوليائه، و بما أنّه مكبّل بقيود السجن يسعى الخلاص منه بأية طريقة كانت، فالشكوى عند الصابيء مصحوبة بالمدح دائماً، و هو لايجرؤ على الشكوى إلاّ بعد أن يقوم بمدح أولياء الأمور.

التهنئة و الإهداء:

للصابيء أشعار في التهنئة و الإهداء، و هذا النوع يقترب من المديح لتضمّنه إياه، و له عدّة قصائد قصيرة و مقطوعات في هذا النوع من الشعر، لأنّ مركزه في الدولة و إقترابه من الملوك و الأمراء، جعله ينتهز الفرص التي تهيّء له الحظوة لديهم، و كانت الأعياد خير موسم لذلك يهدي فيها الصابيء أولياءه الأشعار و المدائح مرفّقة أحياناً بشيء من نتاجه كأصطرلاب أو زيج أو رسالة في أحد العلوم كالهندسة و علم النجوم و غير ذلك. و قد تميّز شعره هذا و شعر المديح عن أشعاره، بحسن الإخراج و فخامة الألفاظ، لأنّه كان سيواجه به الأمراء و الكبراء و إن كان لايخلو هذا النوع من الشعر كعامّة شعره، من البساطة و السهولة التي تقرّبها من النثر. فمن ذلك مقطوعة يهنّيء بها المهلبيّ بعيد الفطر:

أسيّدَنَا هنِئتَ نَعمَاكَ بالفِطرِ وَوَقيتَ ما تَخشَاهُ مِن نَوبِ الدَّهرِ
مَضَى الصَّومُ قَد وَفيتَهُ حقَّ نُسكِهِ وَ وفّاكَ مَكتُوبَ المَثُوبةِ وَ الأجرِ
هَجَرتَ هُجُودَ الليلِ فِيهِ تَهَجُّداً وَ صَبراً عَلَى طُولِ القَرَاءةِ للفجرِ
فَلَو نَطَقت أيّامُنَا بإعتِقَادِهَا لَنَاجَتكَ لفظاً بالدِّعاء وَ بِالشُّكرِ

(المصدرنفسه: 2/46-47)

المديح:

أمّا شعر الصابيء في المديح، فقد مدح بشعره كما مدح الكثير بنثره، فممدوحوه كثيرون: الملوك البويهيون كعضد الدولة و صمصامها، و الوزراء كالمهلبي و الصاحب، و الكبراء كالشريف الرضي، و الأصدقاء من الشعراء و الكتّاب كأبي الفرج

الببغاء و غيره. و يتبيّن ممّا وصل إلينا من شعر الصابيء في المدح أنّه لم يكن لممدوح معيّن أثرٌ على شعره بمعنى أنّه لم يقصر مدحه على شخص معيّن وجد فيه المناقب العظيمة التي تستحوذ على تفكيره، و تجذب شخصيته إليه، و لهذا لم نر في قصائده المدحية قوّة العاطفة و جيشانها، فكان يمدح ممدوحيه بصفاتهم العامّة و بما كان يبغيه منهم و يريد التركيز عليه، كتركيزه على مدح «الصاحب بن عبّاد» بالـ "كرم" لأنّه عرف بعطائه للأدباء و كان رافده الأوّل بالمال، و مدح «عضدالدولة» واصفاً إياه بالحزم و العدل في السياسة لأنّه بالفعل حازماً و كان يرجو منه العفو عنه في الوقت ذاته، و مدح «الشريف الرضي» بـ "شرف النسب و حسن المناقب"، لأنّ هذه صفاته الفعلية ثمّ ليعزّز لديه الحق في الخلافة الذي كان يؤمن به و يسعى إليه. يمدح الصابيء في قصيدة عضد الدولة عند مقدَمه من الزيارة في الكوفة فيقول:

يا خَير مَن زَهَت المَنَابِرُ باسمِهِ فِي دَولةٍ عَلِقَت يَدَاهُ بِحَبلِهَا
وَ أَقَمتَ فِينَا سِيرةً عَضدِيّةً هَيهَاتَ لَا تَأتِي المُلوكُ بِمِثلِهَا
مَولَايَ عَبدُكَ حَالفُ لَكَ حِلفةً تَعيَا مَنَاكبُ يَذبُلُ عَن حَملِهَا
طُوبَى لِعَينٍ أَبصَرتكَ وَ مَن لَهَا بِغُبَارِ دَارِكَ جَازياً عَن كِحلِهَا

(الحموي، 1980، ج 2، ص 42-44)

يمدح الشاعر الممدوح و يصفه بأنّه خير الملوك حيث تزهى المنابر باسمه و لايستطيع أحد الملوك أن يأتي بمثل ما أتى به الممدوح من الدراية في الحكم و السياسة؛ و يصف الشاعر نفسه كعبدٍ قد أخذ على نفسه حلفةً أن يكون وفيّاً لمولاه؛ و يتمنّى الشاعر رؤية ممدوحه و يتحسّر على من يقع نظره على الممدوح. و كتب إلى الشريف الرضي قبل وفاته، بقصيدة يمدحه بها ويتلاعب بالكلمات والتَّراكيب أتيُّما لعب فى حال أنَّ المفهوم واحد وهو مدح كنية الممدوح وحسنه "أبا الحسن"و أنَّ هذه الكنية المشارإليها جامعة لجميع صفات الخير ثم يستخدم صنعة الإحتراز البلاغيِّة فيقول وذن كان هناك من حمل هذه الكنيِّة فهى لا تفيده لأنَّك توارثت الإحسان ونزل بكم المجد ثم نرى من الصابىء إشارة واضحة فى الشَّطر الأخير يمتدح فيها أهل

البيت "وأنتم أُناس فيكم المجد قطن" لكن ما نريد قوله هنا و إن المفهوم واحد لكت التَّخريجات الجميلة الَّتى يقتبسها الشَّاعر من المفهوم الواحد تكون أجمل فيقول ما يلى:

أيَا كُلَّ شيءٍ قِيلَ فِي وَصفِهِ حَسنُ إلَى ذَاكَ يَنحُو مَن كنَّاكَ أبَا الحَسَنِ

فَوحدُهَا للإختصارِ إشارةً إلَى جُملَةِ تَفصيلُهَا لَكَ مُرتَهِنِ

وَ مَا هِي إلاّ كنيةُ لَكَ اِرثُهَا وَ أن مسَّهَا مِن غَيرِ أَربَابِهَا الدرنِ

ألستَ لَهَا بَعدَ الوَصِي وَ آلِهِ وَ أنتُم أُنَاسُ فِيكُم المَجدُ قطنِ

(الشريف الرضي، 1960م، ص27-30)

الهجاء:

و للصابئى بعض المقطوعات في الهجاء، منها ما يلى لكنَّما فى القطعة أدناه لم يتعرض أبوإسحاق الصابئى إلى عائلة المهجور ولا إلى فصيلته وعشيرته و أُمِّه وأبيه تطرق إلى سلوك المهجو بإشارات وإيماءات تكن غير صريحة فلا يتطرق إلى خلِّةٍ أم هنَّة من هنات المهجو بل وصفه بالجهل وأنَّه جامع لصفات القبح مبتعداً عن ذكرها لكن فى البيت الثالث خرج الشَّاعر بتخريجة جميلة ويكاد أنَّ هذا البيت هو شذرة العقد ودرَّة التَّاج فمن نماذج هذا النوع من شعره:

يا جَامِعاً لخلال قبيحة ليس تحصى

نقصت من كلّ فضل فقد تكاملت نقصا

لو أنّ للجهلِ شخصاً لكنت للجهلِ شخصا

(الثعالبي، 1375هـ: 284/2)

و هناك ثلاثة أبيات يهجو بها الصابيء الدولة و يذمّها، بيد أنّه كان يتحذّرها لشدّة ما أصابه من النكبات على أيدي رجال الحكم، و ليس لدينا معلومات حول زمن إنشاد هذه الأبيات أو مناسبتها، يصوّر الصابيء في هذه الأبيات الدولة الحاكمة بأنّها لاخير فيها، و قد اقتحمت الناسَ مصائبُ الدنيا و رجال الحكم يعيشون في حالة الترف، فيصفها بالنَّذالة ويستعمل التقابل فى الشَّطر الثَّانى "ثوى داءها فينا و أعيا

دواءها" وأيضا في البيت الثَّاني لم ينفك شاعرنا من ذكر التقابل "فنحن لها أرضُ و أنتم سماءها "و في البيت الثَّالث لشدة علاقة الشَّاعر بالقرآن الكريم فإنَّه يستعمل تضمينة قرآنيَّة من الآية الكريمة "ولا تفرحوا بما آتاكم "الحديد .33 فقال ما يلي:

ألا أقل لأهل الدولة النذلة التي ثوى داءها فينا و أعيا دواءها

لقد كبت الدنيا على أمّ وَجهها فنحن لها أرض و أنتم سماءها

فلا تفرحوا بالحظ منه فإنّه قليل على هذا المحال بقاؤها

(المصدر نفسه، ص 285)

الفخر:

للصابيء في هذا النوع من الشعر قصيدتان و مقطعان قصيران. في إحدى القصائد يردّ على من يعيره بالحبس و في القصيدة الثانية يبيّن مقامه من السلطان و بالتالي مقام كلّ كاتب لصاحب الديوان. و تتميّز هذه القصيدة بقوّة المعاني و جمالها و حسن التأليف. يقول:

وَ قَد عَلِمَ السُّلطانُ إنِّي لِسَانُهُ وَ كَاتِبُهُ الكَافِي السَّدِيدُ المُوَفَّقُ

أُوَازِرُهُ فِيمَا عَرَى وَأَمُدُّهُ بِرَأيٍ يُرِيهِ الشَّمسَ وَ الليلَ أغسقُ

يُجدِّدُ بِي نَهجَ الهُدَى وَ هُوَ دَارِسُ وَ يفتَحُ بِي بَابَ النُّهَى وَ هُوَ مُغلِقُ

فَيَمنَايَ يَمنَاهُ وَ لَفظِي لَفظُهُ وَ عَينِي لَهُ عَينُ بِهَا الدَّهرُ يَرمَقُ

(العباسي، 1947م، ج2، ص72)

أبو إسحاق الصَّابئي في ظرافة خاصَّةٍ أظهر فخره بأنَّه اللسان النَّاطق والكاتب الموفق للسلطان وهذا ما أقرَّ به السُّلطان و يستمرُّ هذا الفخر في البيت الثَّاني إذ يقول بأنّه

العون والمساعد فى الضَّراء للسلطان لكنَّه فى الشَّطر الثَّانى خرج بنخريجة جميلة وهو أنَّ بآرائه الصَّائبة استطاع أن يرى الشَّمس والليل كناية عن مواقع الهداية والضَّلال فى الأُمور وهذا ما جعل السُّلطان أن يدعونى إلى طلب مواقع الهدى الحالكة وبآرائى الجادَّة اكشف له طرق الحقّ الغامضة وفى البيت الرَّابع أخذ هذا الفخر أوجه فجعل لنفسه مكانة الملك فى القبض والبسط للأُمور وإن دلَّ هذا الفخرُ إنَّما يدلُّ على الثِّقة بالنَّفس العالية و مقدرته القصوى على إيفاد التراكيب والصُّور الشِّعرية الخلَّابة والجميلة ممَّا جعلت منه شاعراً خالداً يبقى إسمه فضلاً عن أدبه فى صفحات التَّاريخ.

نتيجة البحث:

أبو إسحاق الصَّابئى بمقدرته الأدبيِّة وثقافته العاليِّة إستطاع أن يخترق الصَّفوف الأدبيِّة والسِّياسيِّة أنذاك ونظراَ لديانته مذهب الصَّابئة لم يمنعه التَّفاوت المذهبى بينه وبين المسلمين وكثرة المنافسين له من أن يتسلق إلى أعلى مكانة فى القصر البويهى فإصبح كاتبا للدِّيوان وفضلا عن ذلك فإنَّه صار المستشار الأعلى للحكَّام فى السَّراء والضَّراء فلا يتوصل للعقل السَّليم بأنَّ الصِّدفة والحظَّ هما اللذان ساعدا الرَّجلَ للوصول إلى هذه المرتبة العاليِّة فأبواإسحاق الصَّابئى فضلاَ عن مقدرته العاليِّة فى الكتابة المتسمة بالتوازن الموسيقى والأسجاع والإقتباسات فإنَّ أشعارة رقيقة ذات سمات عاليِّة ومنها الظَّهور والتَّجسيم والتَّضمينات والإقتباسات القرآنيِّة والإستدلالات وإيفاد الثَّقافة السَّائده فى بعض أشعاره جعلت منه شخصيِّة بارزة أدبيِّة خالدة لكن الحظ لم يحالفه من ضياع ديوانٍ له وأخيراً من شمَّر عن ساعديه من الباحثين لجمع شذرات أشعاره ومع كلِّ ذلك تبقى بعض النِّقاط عالقة مجهولة من حياته وهو البعد السِّياسى فلانعلم حقاً أن كان أبواسحاق بريئاَ مظلوماً فيما تعرّض له من المحن أم أنّه كان ضالعا في المؤامرات السياسية. أمّا أبواسحاق الكاتب فأبرزُ ما يميّز كتابته بالإضافة إلى البلاغة العالية و الصناعة الأنيقة، هو هذا الفكر المنطقي الدقيق و الثقافة الواسعة اللذان يجعلانه متحكّماً في مادّته رابطاً بين أجزاء رسالته، التي غالباً ما تكون طويلة ، ربطاً

محكماً فلايمكن للقاريء أن يجد ثغرة ينفذ منها إلى نقص ما يقوله أو الإشارة إلى نقص فيها. أمّا الصابئى الشاعر فهو بغداديّ رقيق الطبع و اللفظ، له آراء في الشعر لم يتهيأ له التزامها، يكون شعره أحياناً مرآة لنفسه معبّراً عن خلجاتها و سكناتها ثمّ يبتعد أحياناً أخرى ليكون غريباً عليها لا علاقة له بها. هذا بإختصار ما إستنتجناه حول أبي اسحاق الصابيء الكاتب و الشاعر و بهذا نرى تميّزه عن معاصريه في نكباته المتصلة و بؤسه و شكواه و في تمسّكه بالدّين و في قدرته على الجمع بين معتقد يبطنه و ديانة يدعو إليها ظاهراً و يؤيّدها و يتكلّم بأحكامها، فقد جمع بين التشدّد في دين الصابئة و كتابة ديوان رسائل المسلمين، فأبواسحاق شخصيّة متميّزة و كاتب مبدع و شاعر رقيق.

المراجع:

- ابن النديم، أبوالفرج محمد بن أبي يعقوب الورّاق (1971م.)؛ **الفهرست**، تحقيق: رضا تجدّد، طهران.
- ابن خلّكان، شمس الدّين أحمد بن محمّد (1994م)؛ **وفيات الأعيان و إنباء أبناء الزمان** . التّحقيق الدكتور إحسان عبّاس . بيروت: دار صادر .
- أبونواس، الحسن بن هانيء (لا تاريخ)؛ **ديوان**، د.ط، بيروت: دارصادر.
- بروكلمان ، كارل (لا تاريخ)؛ **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة عبدالحليم النجار، القاهرة: دار المعارف.
- التوحيدى، أبوحيان(1942م)؛ **الإمتاع و المؤانسة**، تحقيق أحمد أمين و أحمد الزين، د.ط، القاهرة:
- الثعالبي، أبو منصور(1375هـ.)؛ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** . مطبعة القاهرة
- الذهبى، شمس الدين (1982م)؛ **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط – بشار معروف – آخرون، د.ط، بيروت: مؤسسة الرسالة.

- الزركلي، خيرالدين (1980م)؛ **الأعلام**، الطبعة الخامسة، بيروت: دارالعلم للملايين.
- الشريف الرضي، أبوالحسن محمد بن أبي أحمد الحسين (1956م)؛ **ديوان الشريف الرضي**، بيروت: دار صادر و دار بيروت.
- الصابي، أبوإسحاق ابراهيم بن هلال (دون تاريخ)؛ **المختار من رسائل أبي اسحاق الصابي**، تحقيق: الأمير شكيب أرسلان، بيروت:دارالنهضة الحديثة.
- الصابي، أبي الحسن هلال بن المحسن (2000م)؛ غرر البلاغة، تحقيق محمد الديباجي، بيروت: دارصادر للطباعة و النشر.
- ضيف، شوقي(لا تاريخ)؛ **عصرالدول و الإمارات(الجزيرة العربية- العراق و ايران)**، الطبعة السادسة، مصر: دار المعارف.
- ضيف، شوقي(1971م)؛ **الفن و مذاهبه في الشعر العربي**، الطبعة السادسة، مصر: دار المعارف.
- الفاخوري، حنّاء (2005م)؛ **الجامع في تاريخ الأدب العربي**، بيروت: دارالجيل.
- مبارک، زکی(لا تاریخ)؛ **النثر الفنی فی القرن الرابع**، د.ط، بیروت: المکتبة العصریة.
- --- --- (1348)؛**أبو إسحق الصابی**،«البلاغ الاسبوعی »،العدد 163.
- المقدسي، أنيس(1989م)؛ **تطوّر الأساليب النثريّة**، الطبعة الثامنة، بيروت: دار العلم للملايين.
- الحموي، ياقوت(1980م)؛ **معجم الأدباء** . الطبعة الثالثة، القاهرة: دارالفكر.